



أنوار السُّنة المُحمديَّة شرح رياض الصالحين (١٣) باب المراقبة (١) الشيخ أحمد السيد.

الفهرس

٣	المقدمة:
٣	باب المراقبة:
٤	القسم الأول: معية عامة:
٨	الحديث الأول:
٩	الفوائد:
١٠	الفائدة العملية:
١٣	ذكر بعض علامات الساعة التي ذكرها النبي ﷺ:
١٤	الخاتمة:

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا تبارك وتعالى ويرضى، الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، أمّا بعد:

حياكم الله ﷺ جميعاً، نستعين بالله ونستفتح المجلس الثالث عشر من مجالس رياض الصالحين تحت عنوان "أنوار السنة المحمدية".

وهذا المجلس سيكون مجلساً مختصراً لبعض الظروف والضغوط المتعلقة بي، لكن أحببت ألا نترك هذا المقام بدون درسٍ ولو كان صغيراً أو قصيراً، فنستعين بالله

باب المراقبة:

باب المراقبة، قال النووي -رحمه الله تعالى-: "... ولا يزال حقيقة الترتيب، ولا تزال الأبواب التي في بداية رياض الصالحين في فلك الأبواب المهمة من أبواب الدين، بعد ذلك ستأتينا أبواباً هي أقلُّ أهمية، وإن كانت ضمن المهم بحكم أنَّها من الدين، يعني هناك أبوابٌ مُتعلِّقةٌ بتفاصيل الأخلاق والأدب وما إلى ذلك، لا يمكن أن تُساوى بالأبواب المتعلقة بأساس الدين وأساس أعمال القلوب.

الدين على رتبٍ، لا يمكن أن يكون الإنسان فقيهاً في الدين إذا ساوى بين رتب الدين، لا بدَّ أن يفقه مقامات الدين، ومن أعظمها وأزكاها وأجلّها وأعلاها: ما يتعلّق بأعمال القلوب.

وقد بدأ النووي -رحمه الله- كتابه بهذه الطريقة، فقال في البداية: باب الإخلاص، ثمَّ باب التوبة، ثمَّ باب الصبر، ثمَّ باب الصدق، ثمَّ باب المراقبة... هكذا يُعلِّم الدين.

وهذا - كما قلتُ - من أولى ما يدخل في قول النبي ﷺ في قول الصحابة: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فَتَيَانُ حَزَاوِرَةَ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ" [ابن ماجه: ٥٢] ماذا تعلّموا؟ هذه الأبواب أو ما يُشابهها ممّا يتعلّق بأعمال القلوب، هذا جزءٌ ممّا يدخل في تعلّمنا الإيمان.

ولذلك أي تربية على منهاج النبوة وأي تعليم على منهاج النبوة يجب أن يكون من أولى ما يُبدأ به هو هذه الأبواب.

على أية حال، قال -رحمه الله تعالى- في باب المراقبة:

- قال الله ﷻ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]

- وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

- قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

- وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. والآيات في الباب كثيرة معلومة.

صدّر النووي -رحمه الله- كعاداته الباب بالآيات القرآنية، وهذا المنهج هو الذي ينبغي أن يكون، حين نتلقى أبواب الدين نتلقاها من الوحيين أو من وحي الكتاب ومن السنة، ولا يُكتفى بأحدهما دون الآخر.

هذه الآيات التي اختارها هي آيات في المراقبة، آيات في أن الله يراك، آيات في أن الله مع العباد أينما كانوا، وهذه المعية المذكورة في الآية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ليست معية خاصة بأنبيائه ولا بالمؤمنين والصالحين؛ بل هي معية لجميع العباد، والمعية قسمان - كما لا يخفى عليكم -:

القسم الأول: معية عامة.

القسم الأول: معية عامة: وهي معية الإحاطة والتدبير، ومعية أن الله ﷻ يعلم ما الذي يجري، وأن الله ﷻ يسمع كل قول يُقال؛ بل وما هو أكثر من ذلك، وما هو أخفى من ذلك، وهو ما يكون في الصدور، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

ولذلك يقص الله ﷻ علينا أحياناً في كتابه بعض ما اختلجت عليه صدور الناس دون أن يبدوا، فيُبين الله ﷻ أن هذا المعنى قد طواه صدر فلان، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧]. يذكر الله سبحانه وتعالى بعض الخواطر والمشاعر التي تأتي في القلوب وفي النفوس.

فلذلك باب المراقبة هنا من أهم ثمراته: أن يعلم الإنسان أن الله ﷻ يراه على جميع أحواله، وأن يعلم أن الله ﷻ مُحِيطٌ به، وأن يعلم أن الله ﷻ يسمع قوله، بل ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وأن الله ﷻ يعلم ما هو أدنى من ذلك إذا كانت: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] من حيث الأعداد، من حيث الاجتماع والكثرة والقلة، وما هو أخفى وما هو أسرُّ من ذلك كله وما هو في الصدور.

وهذا المعنى هو من أهم ما ينبغي أن يُربَّى عليه الإنسان المؤمن، وإذا كان في الحضور هنا من يُربِّي طلابه وطلباته أو أبٌّ أو أمٌّ أو مِمَّنْ يستمع آباء أمهاتٍ أيّاً كان؛ من أهم وأولى وأول ما ينبغي أن يُغرس في نفوس الأبناء وفي نفوس الطلاب أن تعلم أن الله ﷻ يراك حيثما كنت، وأن تعلم أن الله ﷻ يعلم ما في نفسك في جميع أحوالك، وهذا سرٌّ من أعظم أسرار دخول الجنة؛ فمن يعيش في حياته وهو يُلاحظ هذا المعنى قل لي: متى سيعصي الله ﷻ؟ وإن عصى فقل لي: متى سيتأخر عن التوبة؟ لن يتأخر.

ومتى يتجرأ الإنسان على حدود الله ﷻ إذا غاب عنه هذا المعنى؟ وكما قلت: هذا المعنى من أهم ما يُربَّى عليه الصغار، ومن أهم ما يُنشأ عليه الطلاب، ولا يختص بالصغار حتى نطن أن هذا فقط للأطفال، هذا ينبغي أن تُربَّى عليه نفسك، كل واحدٍ منا يُربَّى نفسه عليه، وهذا من شريف العلم ومن عظيمه ومن أزكاه ومن أعلاه ومن أغلاه ومن أنفسه، ومن أعظم ما ينبغي أن يُربَّى عليه الإنسان المسلم، ويُذكر به نفسه ويُعيد التذكير به.

وقد أكثر الله ﷻ من ذكر هذا المعنى، وكم وصف الله سبحانه وتعالى وأخبر عن نفسه في كتابه بأنه: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وبأنه: ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وبأنه: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ويذكر الله سبحانه وتعالى

أنواعاً مُتعلِّقةً بأفعال العباد وأنه يُحيط بها، وقصصاً وأحوالاً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

- وقال سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

- ﴿يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

- قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

- وقال سبحانه وتعالى - هذه الآية التي ذكرها النووي هنا وهي آيةٌ مُهمَّةٌ في هذا المعنى -: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وهذه الآية من أهم وأعظم الآيات في قضية المراقبة: أن الله ﷻ يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ فيما يتعلَّق بهذه الآية في أن النبي ﷺ كان يُراقب الله سبحانه وتعالى في شأن ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ وذلك حين كان فتح مكة؛ إذ أباح النبي ﷺ دماء عددٍ من المحاربين الذين كثر شرهم وأذاهم وآذوا الله ﷻ ورسوله ﷺ، وجاء أحدهم تائباً مُستجيراً مُستنجداً، فوقف أمام النبي ﷺ وكان النبي ﷺ قد أباح دمه، فأخذ يعتذر والنبي ﷺ ساكتٌ، ويعتذر والنبي ﷺ ساكتٌ، ثم قَبِلَ منه، ثم قال لأصحابه ﷺ ما معناه أنه: لماذا لم يثُم واحدٌ فيقتله؟ أنا أمرتكم أن تقتلوه. فقالوا: "لَوْ أَشَرْتَ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ". فقال النبي ﷺ: "مَا كَانَ لَنَبِيِّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ" [أبو داود: ٤٣٥٩] هذه الإشارة التي بالعين؛ ما كان لنبيٍّ أن تكون له خائنة الأعين!

خائنة الأعين يدخل فيها مثلاً هذه الصور، تجد العلماء يذكرون صوراً: مثلاً حين يُسرُّ الرجل النظرَ إلى امرأةٍ، يسترق النظر إليها والناس لا يرونه، سواءً كانت هي تراه أو لا تراه، استراق النظر الذي هو بعيدٌ

عن أعين الرقيب هذا من خائنة الأعين، ونفس الشيء بالعكس إذا كان فيه شيءٌ مُرتبطٌ بالشهوة أو نحو ذلك هذا من خائنة الأعين.

أرأيتَ خائنة الأعين هذه التي يفرُّ الإنسان من الرقيب البشري؛ هنا من أهمِّ ما يدخل في المراقبة أن تعلم أنَّ الله ﷻ يعلم خائنة الأعين تحديداً، ممَّا يُريد الله ﷻ منك أن تعلمه: أنَّه يعلم خائنة الأعين، التي يظنُّ الإنسان فيها بخيائنه أنَّه يغيب فيها عن الرقيب وليس كذلك، فالله ﷻ على كلِّ شيءٍ رقيبٌ سبحانه وتعالى.

فلذلك هذا الباب بابٌ شريفٌ، وبابٌ عظيمٌ، وبابٌ زكيٌّ، وبابٌ - كما قلت - هو من أبواب التربية كبيرٌ ومن أبواب التربية عظيمٌ، ومن الأولويات الكبرى، وهذه الآيات التي فيها هي بعض ما جاء في هذا الباب وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقَبَّلُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

من المفسرين مَنْ قال: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: وحدك، ﴿وَتَقَبَّلُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ أي: في المصلين، فيراك حين تقوم وحدك، ويراك حين تقوم مع الناس.

ومن الجميل استحضار المراقبة الإلهية، ليس فقط في باب المعاصي والذنوب بحيث تكفه عن ارتكاب المعصية والذنوب لأنَّه يعلم أنَّ الله ﷻ يراه؛ وإنما من أهمِّ ما يدخل في باب المراقبة أن تستحضر مراقبة الله ﷻ لك وقت العبادة، مثل هذه الآية: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقَبَّلُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾، وفي سورة يونس: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

والشاهد هو: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أنَّ الاطلاع والمراقبة جيدٌ أن يستحضر الإنسان فيها معنى المراقبة في الطاعة وليس فقط في المعصية.

في هذا المجلس نكتفي بحديثٍ واحدٍ لما صدرت به من ضيق الوقت اليوم، وأمَّا الأحاديث:

قال -رحمه الله تعالى- عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رضي الله تعالى عنه- قال: "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ. وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْخُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِجَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ. قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا. ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ" رواه مُسْلِمٌ [صحيح مسلم: ٨].

قال النووي -رحمه الله تعالى-: ومعنى أن تلد الأمة ربتها أي سيدتها، ومعناه أن تكثر السراري حتى تلد الأمة السرية بنتاً لسيدها، وبنت السيد في معنى السيد، وقيل غير ذلك.

والعالة: الفقراء، وقوله ملياً: أي زمناً طويلاً، وكان ذلك ثلاثاً.

هذا الحديث قال القرطبي -رحمه الله تعالى- فيه: هذا يصح أن يُلقَّب أو أن يُقال فيه "أُمُّ السَّنة النبوية"، وبعض العلماء وصفه بأنه "أصل الإسلام" أو "أصل من أصول الإسلام".

وقال فيه العلماء غير ذلك والكلام فيه كثير، وربما قريباً تناولنا الكلام عن الحديث في إحدى عشرة فائدة في شرح الجمع بين الصحيحين.

وهذا الحديث مدرسة، وهو أصلاً حديث تعليم، وكلُّ القصة كانت تعليمًا، لأنَّ جبريل جاء يُعلمهم دينهم، والفوائد فيه كثيرةٌ جدًا وعظيمةٌ جدًا، وهو من أركى ما ينبغي أن يُعلَّم ويُدرَّس ويُتفقَّ فيه، ويمكن أن يأخذه الإنسان في مجالسٍ متعددةٍ.

الفوائد:

وفيه أنواعٌ من الفوائد مختلفة الزوايا والموضوعات، ومن ذلك:

(١) أنَّ ممَّا ينبغي أن يُعلِّمه المؤمنون والسابقون وطلاب العلم والعاملون والمُصلحون ممَّا ينبغي أن يعلموه وأن يستمروا في تعلِّمه هو: **قضايا الإيمان الكبرى**؛ لأنَّ الذين عُلِّموا في هذا الحديث هم الصحابة الذين مع النبي ﷺ وجاهدوا معه، ومع ذلك جاء جبريل يُعلمهم دينهم، والأشياء التي علموها: الإسلام والإيمان والإحسان وأُشراط الساعة وما إلى ذلك.

(٢) **أهمية تنوع أساليب التعليم**، ولا يكفي الإنسان بالأسلوب المباشر التعليمي وهو الإلقاء والتلقِّي من جهة الطلاب فقط؛ وإمَّا يكون هناك تنويعٌ في الوسائل؛ فهذا الذي جاء في الحديث أو القصة هي حدثٌ عجيبٌ!

كما ذكرتُ في شرح الجمع بين الصحيحين: أنَّ الإنسان بمُجرد استماعه للقصة أصلاً تعلق في ذهنه، وهي من أسهل الأحاديث التي يحفظها الإنسان في الأربعين النووية والأحاديث، كذا تعلق فيك القصة هذه حديث جبريل لأنَّه مشهَدٌ؛ رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، واضحة وسهلة، ثم قال: صدقت وعجبنا له... واضحة، وممكن حتى الإنسان مع أنَّه حديثٌ طويلٌ لكن يُمكن من قراءته ثلاثة خمس مرات تقدر أن تسمعه، فما بالكم بمن حضر المشهد هل يُمكن أن ينساه؟ وما مدى تأثير هذا المشهد عليه وهو حاضرٌ؟

تخلوا الآن في هذا المجلس يخرج رجلٌ ما فيه أي علاماتٍ تدلُّ أنَّه غريبٌ وفي نفس الوقت هو غريبٌ، كيف هذا هنا؟ ثمَّ يقع المشهد أمام الجميع أمام عمر والصحابة، ويأتي أمام النبي ﷺ، هي قصة ما الفائدة منها؟ أهمية تنويع التعليم وأساليب التعليم لأنَّه هو قال: يعلِّم، جاء يُعلِّمكم.

الفائدة العملية للمُعلمين، للمُربين، للدعاة، للمُصلحين: لا تَكُن جامدًا، لا تَكُن مُملًا، لا تَكُن بنفس الأسلوب، نوع، اتعب، خطط، فكر، اخترع أشياء جديدة، فكر، دع لك شيء من الأشياء تفكر فيها سواء من الأساليب الحديثة في المونتاج والتصميم أو غير ذلك من الأشياء والوسائل، وهذا باب كبير فيه تنوع أساليب النبي ﷺ ما بين السؤال، ما بين كذا وما بين كذا وهي معلومة.

- هي في التفريق بين الإيمان والإسلام من بعض الوجوه، والتفريق بين الإيمان والإسلام هنا في أنَّ الإسلام عُرِف بالأعمال الظاهرة، والإيمان عُرِف بالعمل الباطن أو بالاعتقاد القلبي، وهذه القضية البحث فيها في أبواب الإيمان، وأحيانًا هذا الحديث أصلًا إنما يُورد لهذه المسألة؛ بل هو من أهمّ الحديث في هذه المسألة، والكلام فيها لا يسع له المقام هنا لكن هذه فقط إشارة.

أيضًا من الفوائد في هذا الحديث وهي التي لأجلها ساق الإمام النووي -رحمه الله تعالى- هذا الحديث في باب المراقبة: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" ما الفرق بين الاثنين، بين أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وبين فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ؟

بعضهم ذكر أنَّ الأول هو: كَأَنَّهُ مقام رغبة، والثاني: كَأَنَّهُ مقام رهبة الأول لا ينحصر ليكون الرغبة فقط، لكن (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) طبعًا هو أذكى وأعلى من مقام (فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) وفي الأخير هو مُؤداه واحد، وهو أنك حين تُؤدّي العمل تعلم أَنَّ الله ﷻ يراك، سواء كُنْتَ أَنْتَ تعبدُهُ كَأَنَّكَ تراه أو كُنْتَ تعبدُهُ باستحضار أَنَّهُ يراك، لكن هناك فرق بين المقامين: المقام الأول أعلى وأذكى ويُؤدّي إلى مزيد الإحسان؛ لأنَّ هذا كله تعريف الإحسان، متى تُحسن العمل فعلاً؟

أنت تخيل نفسك الآن في العبادة، فما أعلى وأعظم وأشدَّ وأكبر سببٍ يُمكن أن يجعلك تُؤدي العبادة بطريقة حسنة؟ أن تعبد الله كَأَنَّكَ تراه.

نحن الآن تأتينا صلاة المغرب، تخيل أن يطلب الله منك يوم القيامة -تخيّل فقط- أن تُصلي هذه الصلاة أمامه كيف ستكون صلاتك أمام ربِّ العالمين؟

هنا "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ" كيف ستكون؟ هذا مقام الإحسان، يعني ما مدى إحسانك لتلك الصلاة؟ لذلك هنا: ما الإحسان؟ قال: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ". نعم ستُحسن حين تعلم أنه يراك، لكن ليس مثل إحسان "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ"، وإن كانت كلُّها في درجةٍ عاليةٍ من درجات الإحسان، وهذا استدلالٌ حَسَنٌ من النووي -رحمه الله- إذ أخرج هذا الحديث ضمن باب المراقبة.

هذا الحديث يُمكن أن تُبَوِّب عليه عشرين بابًا: باب الإيمان، باب مُسمى الإيمان، باب تعريف كذا، وبابٌ مُتعلِّقٌ بعلم الساعة، مثل البخاري بَوِّب عليه أبوابًا كثيرةً مُتعلِّقةً بعلم الله؛ باب: لا يعلم الغيب إلا الله، باب: لا يعلم مفاتيح الغيب؛ لأنَّه في رواياتٍ في "خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ" ... إلى آخره. فهذا هو الشاهد وهذا هو المحل، وهذا هو من أعظم ما ينبغي أن يستحضره الإنسان المؤمن هو الإحسان، والكلام كثيرٌ جدًّا على هذه القضية.

ثمَّ بعد ذلك الحديث عن الساعة وعن أشراتها وهو من الدين؛ لأنَّه ﷺ قال: "جَاءَ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ"، وكان من جملة ما حصل من التعليم هو ما يتعلَّق بأشراط الساعة، والناس في أشراط الساعة طرفان ووسطٌ في الاهتمام بأشراط الساعة:

(١) الطرف الأول: مَنْ يهتم بها زائدًا عن الحد أو يهتم بها اهتمامًا فيه غلوٌّ عمومًا، أو يهتم بها اهتمامًا بلا مُقدماتٍ، يعني هذا بابٌ من أبواب العلم لا يصلح أن يُؤخَذ وحده دون مُقدماتٍ.

فتجد من بعض المُهتمين بالعلم أو بالثقافة الشرعية مثل ما عندنا مُتخصِّصٌ في مُختلف القضايا، واحدٌ يقول لك: مُتخصِّصٌ في علامات الساعة! لا يوجد مُشكلة إذا كان هذا بعد مُقدمات أخذ العلم وأدوات العلم وتريد أن تتركِّز على هذا الباب؛ فهذا بابٌ من الدين، لكن لما يكون هو عبارة عن بابٍ هو الذي بدأت منه أصلًا أنت، وعلاقتك ببقية أبواب الدين هي عبارة عن ثقافةٍ عامَّةٍ، هذا لا يصلح.

ولذلك دائمًا أو كثيرًا ما يأتي أناسٌ من المُتخصِّصين في هذا الباب؛ يأتون بالمُشكلات الشرعية والمعلومات الخاطئة، ولا تسل عن المنهج التوثيقي، ولا تسل عن قضية الربط بالواقع بطريقةٍ خاطئةٍ

وإدخال الظنِّ مع ما لا مُستند له... إلى آخره من خلط الأمور ببعضها. هذا طرفٌ من الأطراف موجودٌ اليوم في الواقع، ولا يأتي حدثٌ من أحداث الواقع إلا ويقول لك: هذا الحدث سيؤدِّي إلى كذا، وسيؤدِّي إلى كذا، واليوم حصل كذا، والسنة هذه سيحصل كذا، وفيه خمسة عشر رؤيا تدلُّ على هذه القضية، وفيه حديث كذا، والاعتماد على الأحاديث الضعيفة وشيئًا فشيئًا التنازل عن الشروط التوثيقية والسير في هذا الطريق، وهذا إشكالٌ وخطأ.

(٢) الطرف الثاني: هم طرفٌ جافٍ عن هذا الباب، ولا يعد هذا الباب من أبواب الدين أو أبواب العلم التي ينبغي العناية بها؛ وإنما يعدُّه من الأبواب التي فيها بعض الفوائد أو ما ينبغي العناية بها، وكثيرًا ما يكون الجفاء عن هذا الباب هو بسبب غلو الطرف الأول، فيقول لك: ما الفائدة من هذا الكلام؟ رأينا... ورأينا... ورأينا... الخطأ في هذا الباب.

والذي ينبغي أن يكون هو أن تكون هناك عنايةٌ بهذا الباب، وأن يكون من ضمن ما يُدرَّس في المناهج التعليمية العناية بعلامات الساعة وأشراط الساعة؛ لأنَّ هذا الباب اعتنى به النبي ﷺ، ولكن لا ينبغي أن يُعنى به عنايةٌ مُنفكةٌ عن بقية العلوم أو عن مُقدمات العلم، وأنتم تعلمون من شدَّة عناية النبي ﷺ بهذا الباب أنَّه قام في أصحابه يومًا من الفجر إلى المغرب يُحدثهم عمَّا سيكون، قال الصحابي الراوي: "فَاعْلَمْنَا أَحْفَظْنَا" [صحيح ابن حبان: ٦٦٣٨].

وتعلمون أنَّ حذيفة كان عنده علمٌ كثيرٌ من هذا، وكان النبي ﷺ يذكر له أشياء، وكان الصحابة يعتنون بهذه القضية، وافتح صحيح البخاري ثمَّ صحيح مُسلم ثمَّ بقية كتب السنة، ستجد أنَّ العلماء قد خصصوا لهذه الأحاديث بابًا، بعضهم ضمن كتاب الفتن وأحيانًا لا، أبوابًا مُعيَّنة -مثلًا- سواءً في الدجال أو في الملاحم أو ما إلى ذلك، ولذلك هذا بابٌ من أبواب الدين، وهنا جاء جبريل يُعَلِّم الصحابة شيئًا من أمور هذا الباب، وهذا ممَّا ينبغي أن يُعلِّم، على أن يتعد عن الإشكال الأول ويتعد عن الإشكال الثاني ويتوسط في العلم بهذا الباب.

الفائدة التالية: هي في ذكر بعض علامات الساعة التي ذكرها النبي ﷺ هنا في هذا الحديث وهي: "أَنَّ تِلْدَ الْأُمَّةِ رَبَّتَهَا، وَأَنَّ تَرَى الْخُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوُلُونَ فِي الْبُنْيَانِ" وقد اختلف العلماء في معنى: أن تلد الأمة ربتها، فذكر النووي -رحمه الله تعالى- مثلاً على ذلك أو تفسيراً لذلك، ثم قال: "وقيل غير ذلك".

لأنَّ الخلاف فيها مشهور، هذا القول الذي ذكره النووي وهو إشارة إلى كثرة الفتوحات بحيث أنَّه تكثر السراري، فيكثر أن تلد الأمة ربتها بالوصف الذي ذكره النووي رحمه الله تعالى. وقيل: لا، بل هي دليلٌ على اختلال الموازين، وأنَّ القضية فيها كأَنَّها قضيةٌ في الوصف أو في التشبيه؛ أن كأنَّ الأمة تلد ربتها أو ربها؛ يعني من شِدَّةِ عقوق الأبناء لآبائهم كأنَّ المرأة تلد سيدها ولا تلد ابنها!

والذي يبدو -والله أعلم- أنَّ هذا التفسير أقرب للعلامة الثانية؛ لأنَّها كلَّها هي في اختلال الموازين؛ لأنَّ: "وَأَنَّ تَرَى الْخُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوُلُونَ فِي الْبُنْيَانِ" وصار هناك ارتباطٌ بين الجملتين؛ أنَّ هؤلاء فقراء رُعاة إبلٍ خُفَاة، خُفَاة حتى أحذية ما عندهم، ثمَّ يؤول الأمر بهم سريعاً إلى أن يتطاولوا في البنيان وفي بعض الروايات: "أَنَّ يَكُونُوا مُلُوكَ الْأَرْضِ" في صحيح مُسلم، وفي رواية: "أَنَّ يَكُونُوا رُؤُوسَ النَّاسِ" يعني ليس فقط أنَّه يكون عندهم أموالٌ وتطاول في البنيان؛ لا، يكونون ملوكاً ورؤوساً، وهذا يشبه انقلاب المعايير أيضاً أو انقلاب الحال الذي في الصورة الأولى إذا قلنا هذه في العقوق، صارت الجملتان مترابطتين من حيث معنى التغيُّر الذي يحصل -والله أعلم-، لكن هذا وهو من جملة التفسير الذي ذكره العلماء من العلماء المتقدمين.

وهاتان علامتان إذا رؤيتا في زمنٍ فلا ينبغي أن يُنظر إلى هذا الزمن نظراً عادياً، فما الفائدة من ذكر علامات الساعة، حتى لا نكون مِمَّنْ يدخل في معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

هذه آياتٌ لما تقع في أزمنةٍ معناها لازم تعرف أنَّ الساعة اقتربت، ما يصلح للإنسان أن يغفل عنها، وهذه العلامات -خاصَّةُ الثانية- هي علامةٌ وقعت في زماننا هذا بل وقعت بشكلٍ عجيبٍ وعظيمٍ ومُطابقٍ تمامًا لما قاله النبي ﷺ، وهي ليست مجرد خبرٍ، وإنما خبرٌ فيه ذمٌّ؛ لأنَّ علامات الساعة كثيرًا ما يُراد بها الذمُّ، لكن ليس بالضرورة دائمًا يُراد بها الذمُّ.

الشيء الثاني: أنَّه هل علامات الساعة يُؤخذ منها أحكامٌ ولا هي مجرد إخبارٌ؟ هذه مسائل عمومًا لعله -إن شاء الله- إذا يسَّر الله ﷻ لنا سلسلةً في علامات الساعة نتكلَّم عن ضوابط ومعايير، وهل يُؤخذ منها أحكامٌ أم لا، وهل يُؤخذ منها توجيهٌ في العمل؟ مثلاً: "اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ" [صحيح البخاري: ٣١٧٦] هل فيه حثٌّ على فتح بيت المقدس بعد موت النبي ﷺ أو هو مجرد إخبارٌ؟ وبالتالي حتى النصوص التي تأتي عن آخر الزمان؛ هل لما يأتي علامة خبر كذا ثم كذا؛ هل فيه حثٌّ على العمل بما يُؤدِّي إلى هذا أو هي مجرد إخبارٍ ولا يُستجلب مثل هذا؟

فهذا -إن شاء الله- لعله في سلسلةٍ عن علامات الساعة إن يسَّر الله ﷻ، بعد ما تنتهي من السلاسل الكثيرة التي فوق رقابنا الله يسهلها -إن شاء الله- ويبارك فيها ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عينٍ.

الخاتمة:

هذا أهمُّ ما أردتُ أن أقوله في هذه العجالة، وإلاَّ فالفوائد من هذا الحديث كثيرةٌ. ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الصادقين، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عينٍ، ونعوذ بالله ﷻ من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونعوذ بالله ﷻ من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونعوذ بالله ﷻ من شرِّ الشيطان وشركه، ونعوذ بالله ﷻ من الهمِّ والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل، ونعوذ بالله ﷻ من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء، ونعوذ بالله ﷻ أن يخذلنا بذنوبنا، ونعوذ بالله ﷻ من شرِّ ما عملنا ومن شرِّ ما لم نعمل، ونعوذ بالله ﷻ من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ، ونسأل الله ﷻ العافية. ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد.